

الوسائل العملية لإصلاح قسوة القلوب (١)

أ.د. صلاح سلطان

المستشار الشرعي للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

في مملكة البحرين

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد..
فأتقدم بالأصالة عن نفسي ونيابة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بتهنئة قلبية خالصة، بتمام رمضان تعبداً، وعيد الفطر

فرحةً برحمة اللّٰه، ويسرُّنا أن نقدم العدد السابع عشر من «سلسلة قضايا اجتماعية وإسلامية» يقدِّم لنا فيه المستشار الدكتور صلاح الدين سلطان دراسة حول الوسائل العملية لإصلاح قسوة القلوب، حيث يتراجع الكثير بعد رمضان عن الانشغال بقلبه، وهو وحده الذي ينفعنا عند لقاء ربنا:

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء: ٨٨-٨٩).

والله ولي التوفيق...

عبدالله بن خالد آل خليفة

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

شعبان ١٤٢٩هـ

مقدمة

الحمد للّٰه الذي جعل القلوب بين أصابعه يصرِّفها كيف يشاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعلى آله وأصحابه التابعين ذوي القلوب الحية بنور اللّٰه عز وجل، ومن تبعهم على منهج إصلاح القلوب، حتى لقاء ربنا علام الغيوب، وبعد...

فممِّا لا يخفى على أحد أن القلب الذي يُقبل على اللّه في رمضان يعود من الرحمة إلى القسوة، وبعد الذكر إلى الغفلة، وبعد الخشوع إلى التشتت، وبعد الجود إلى الشح، وهو ما يؤكد ضرورة العناية الدائمة بالقلب، تطهيرا، وتفكيرا، وإصلاحا، وتقويما، وإذا كان القلب العضوي لايستغنى أبدا عن كميات محددة من الدم، فإن

القلب في جانبه المعنوي أكثر حاجة إلى نور الإيمان، وحب الرحمن، والتطلع إلى الجنان، والخوف من النيران.

وفي هذه الدراسة أقدم رؤية تربوية عن الوسائل العملية لإصلاح قسوة القلوب، ذلك المرض الذي لا يخلو منه أحد من العامة أو العلماء، الدعاة أو المدعوين، الشباب أو الشيب، الرجال أو النساء، وقد

احتاج الأمر أن أبيِّن أهمية القلب للإنسان في جانبه المعنوي، مقارناً بشدة اهتمام عموم الناس بالقلب العضوي إذا تطرق إليه أي مرض، وهنا نجد خطوات عملية تبدأ بالتخلية ثم التحلية، فالوسيلة الأولى هي التوبة إلى اللّٰه سبحانه وتعالى، وتحدثت عن أهمية التوبة والعقبات النفسية الداخلية والاجتماعية الخارجية التي تحول بين الإنسان

والتوبة النصوح، وفرّقتُ بين توبة الإنابة والاستجابة، وعرضت صورا من قصص التوبة النصوح من تاريخنا الإسلامي وواقعنا المعاصر، وأخيرا بيّنتُ ما يبدو جليا بنصوص القرآن أن التحرك لإصلاح النفس والمجتمع شرطٌ من شروط التوبة النصوح، وهو ما يمهِّد القسم الثاني من هذه الدراسة حول المشارطة والمجاهدة والمحاسبة والمعاقبة، كي

يبقى القلب حياً بذكر اللّه، عامراً بالتقوى؛ ليواجه بها فتن الحياة ويستعد بها للقاء اللّه.

وأبتهل إلى اللّه أن يكون هذا الكتاب سبباً مباشراً في أن يأخذ أحبابنا في اللّه هذه الخطوات العملية بغاية الجدية لإصلاح قسوة القلوب، وأذكِّر نفسي وإخواني وأخواتي بهذه الآية الفريدة معنى وأثرا في قلب كل مؤمن:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦).

والله ولي التوفيق.

د. صلاح الدين سلطان

١٤ شعبان ١٤٢٩هـ

المطلب الأول: أهمية القلب في الإسلام

للقلب أهمية خاصة عند اللّٰه تبارك وتعالى ثم عند الناس، وإذا كانت أهمية القلب العضوية تتضاعف عند الناس، فإن الأهمية القصوى للقلب عند اللّٰه ترجع إلى جانبه المعنوي، ومن هنا يجب أن نبدأ بتعديل جانب الأهمية بالنسبة إلى القلب ليكون الجانب المعنوي الذي

يبقى أولى من الجانب العضوي الذي يفنى، وهو العلامة الأولى على الموت الحقيقي للإنسان، بأن يتوقف القلب عن العمل، بينما القلب في جانبه المعنوي يبقى حياً عند الله تتضاعف آثاره، ويزداد أجره على قدر ما يترك وراءه من بصمات طيبات وآثاراً رائعات.

والحد الأدنى الذي نريده هو أن يتوازى اهتمام الإنسان بقلبه

العضوي، مع اهتمامه بقلبه المعنوي، والحد الأعلى هو أن يكون الجانب المعنوي الأبقى هو موضع الاهتمام الأرقى على الجانب المادي الذي يبلى. والسبب الأول الذي يدفعنا لذلك هو أننا يجب أن نظل دائما نعظّم ما عظم اللّه، ونقدِّر ما قدَّره رسول اللّه ﷺ، كما روى مسلم بسنده عن أَبَي هُرَيْرَةَ رضي اللّه عنه، عن رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِنّ اللّهَ لاَ

يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ. وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ» (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه، ١٦/١٠٣)، ولما رواه البخاري بسنده عن النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ألا وإنّ في الجَسَد مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، ألا وهِيَ القَلْبُ» (صحيح البخاري، كتاب

الإيمـان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/١٧٢)، ولا ينفع عند اللّٰه يـوم القيـامـة: ﴿إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٩)، فإن هذا يدفع تلقائياً كل ذي حسٍ إيمانيٍ أن يجعل للقلب وطهارته، ونقائه، وصفائه، وقنوته، وإخباته، وتضرعه، وانكساره بين يدي اللّٰه، ورحمته بالخلق أجمعين، وعزته أمام الكافرين، أن تكون هذه الخِلال أولى في حياة الإنسان من

الاهتمام بشكله الخارجي وبقلبه العضوي.

إذا أردنـا أن نضرب لذلك مثالا فالناس كل النـاس إذا أحس أحدهم بأي مرض عضوي في القلب، مثل: زيـادة سرعة الضربات، أو النوبة القلبية، أو مرض الشريان التاجي، أو الذبحة الصدرية، فإن النـاس يسارعون إلى الطبيب ويفرِّغون أنفسهم من الوظائف، والأعمال

الأسرية، والتجارية، والعلمية، والسياسية، ويوقفون كل شيء ويمكثون في المستشفى أياما أو شهورا، ويتبعون تعليمات الأطباء بدقة، حتى يعود القلب العضوي إلى وظائفه الطبيعية. وإذا خرج أحدهم من المستشفى يحتاج أن يستمر على علاج كل بضع ساعات، وأن يغير من السلوك، والانفعالات، والحركة والنشاط، فلا يملك

المريض إلا الاستجابة بكل دقة وثبات.

وتوجيهي هنا لنفسي أولا، ولإخواني وأخواتي وأحبابي في الله ثانيا هل نصل في الاهتمام لعلاج أمراض القلوب وقسوتها إلى درجة لا تقل - إن لم تزد - عن مستوى الاهتمام بعلاج أمراض القلوب المعنوية، مثل القسوة، والنفاق، والرياء، والجُبْن، والخِسة، والحقد، والكبر،

والغدر، والدناءة، والكسل، والعجز، والضعف! وهي أمراض يستدعي بعضها بعضا، فيكون الإنسان عند الناس حياً لبقاء حركة القلب العضوي، وميتاً عند رب الناس لقسوته وبعده عن ربه، فيحتاج إلى هذا النداء العلوي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**

وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٢٤)، فإذا ما عاد إلى الله استحق هذا الوصف الرباني: **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾** (الأنعام:١٢٢)، لكن هذا المستوى يحتاج بالفعل إلى مثل ما يجري في علاج الأمراض العضوية، من الانتقال إلى مستشفى الإسلام العظيم، واستفتاء طب القلوب ودوائها الرسول ﷺ، وعلماء الأمة

الربانيين أطباء القلوب، وينبغي أن يحرم المريض نفسه مما أَلِفَه من الذنوب والمعاصي، كما يُحرم مريض القلب العضوي نفسه من طعام يحبه، وانفعال اعتاد عليه، ويتفرغ لهذه المعالجة بالاعتكاف في المسجد، أو الخلوة مع الكتاب المسطور، أو الكون المنظور، بالعقل تدبرا، وبالقلب تأثرا، وبالنفس تغيرا، أو يشد الرِحال إلى المساجد

الثلاثة (المسجد الحـرام، والنبوي، والأقصى)، ويستروح بين اعتكاف، أو طواف وسعي، وتضرع وبكاء، ودعاء وثناء على اللّٰه، غير مشغول إلا بالإقبال على ربه وتطهير قلبه، وتزكية نفسه، ليعود بوجه غير الذي ذهب به، صاحبَ أوراد وعبـادات، وثوابت للإيمان في كل الأوقـات، كما يعود مريض القلب العضوي بأدوية وتعليمات لا يتركها حتى يبرأ من الآفات.

وحتى تعلو في النفس أهمية القلب المعنوي أُورد طرفاً من هذه الأهمية القصوى للقلب، كما توضحه النصوص الشرعية بجلاء يزيد عن سطوع الشمس في رابعة النهار:

(١) القلب هو وعاء الإيمان أو الكفر: لقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ**

الـرّاشِـدُونَ﴾ (الحـجـرات:٧)، وقوله تـعـالى: **﴿بَـلْ طَـبَـعَ اللّٰهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا﴾** (النساء: ١٥٥).

(٢) القلب هو وعاء الإخلاص أو النفاق والـريـاء: للحديث الـذي رواه الـبـخـاري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنّما الأَعْمَالُ بالنّيات، وإِنّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ

ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إِلى دُنْيَا يُصِيبُها، أَوْ إِلى امْـرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إِلى ما هاجَرَ إِلَيه» (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، ١/١٥)، والمعروف قطعاً أن النية والإخلاص من أعمال القلوب، كما أن النفاق والرياء من أعمال القلوب، لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا

وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

(التوبة:٧٧).

(٣) القلب هو وعاء ذكر الله أو الغفلة عنه

(٣) القلب هو وعاء ذكر الله أو الغفلة عنه: لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الحج: ٢٤-٢٥)، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ

هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

(٤) القلب هو وعاء السعادة أو الشقاء: لقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ (الأنعام: ١٢٥).

(٥) القلب هو وعاء التقوى أو

الجرأة على حرمات الله: لما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْض. وَكُونُوا، عِبَادَ اللّٰه إِخْوَاناً. الْمُسْلمُ أَخُو الْمُسْلم. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقرُهُ. التّقْوَى هاهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِىءٍ

مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ» (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه، ١٦/١٠٣).

(٦) القلب هو وعاء الرحمة أو القسوة والغلظة: لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

(٧) القلب هو وعاء العلم أو الجهل: لقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ (العنكبوت: ٤٩)، ولقوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم:٥٩)، ولما رواه البخاري بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنّ الأمانة نزلتْ من السماء في جَذْرِ قلوبِ الرجال،

ونزلَ القرآنُ فقَرَؤوا القرآنَ وَعَلموا منَ السُّنّة» (صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنة رسول الله، ١٥/ ١٧٤).

(٨) القلب هو وعاء الشجاعة أو الجبن:

لقوله تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ**

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:١٢)، ويقول الشاعر أحمد شوقي:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة

ورأيت شجعان العقول قليلا

(٩) القلب هو وعاء الحب والبغض: لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣).

(١٠) القلب هو وعاء التواضع

أو الكبر: لما رواه أبي داود بسنده عن عيَاضِ بنِ حِمَارٍ ، أَنَّهُ قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِنَّ اللَّه أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِي أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ وَلا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»(سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب التواضع، ١٣/٢٣٨) ، كما أن الكبْر في القلب، لقوله تعالى: ﴿**إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**﴾ (غافر:٥٦)، ولما رواه مسلم

بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ٢/ ٧٤).

(١١) القلب هو وعاء الاطمئنان أو القلق والاضطراب: لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد:٢٨).

المطلب الثاني: الوسيلة الأولى لإصلاح القلب التوبة إلى الله تعالى.

أولا: التخلية بالتوبة قبل التحلية بالطاعات:

جرت سنة الحياة أن التخلية قبل التحلية، ومن الشواهد على ذلك كما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ**

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٦) ، حتى قال العلماء لا يصح إيمان إلا بكفر، أي لا يستقر إيمان بالقلب إلا بعد الكفر بالطاغوت.

٢- ما رواه الهيثمي بسنده أن النبي ﷺ قال: « إن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» (الزواجر للهيثمي، إسناده صحيح ،الرقم ١/ ٨٠) ، فإذا لم يتخلَ الإنسان عن سفاسف الأعمال

فإنه ينسف أعماله الخيرية.

٣- ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا. فَيُعْطَى هَذَا

مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١)، **فهذا مثال على** أن عدم التخلي عن أعمال الشر يُذهب أعمال الخير ويجعل الإنسان كما قال تعالى: ﴿**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً**﴾ (الغاشية ٣-٤).

٤- من المسلّمات لدى الفلاحين أنه يجب حرث الأرض وتنقيتها من كل الحشائش قبل بذر البذور وغرس الفسائل؛ حتى تنمو دون امتصاص غذائها وسقائها من هذه الحشائش.

٥- لا تقوم سيدة في بيتها بفرش السجاد حتى تنظف الأرض، أو باستعمال الأطباق والأواني في المطبخ قبل غسلها من استعمال

سابق. ولا يشرب أحد شاياً أو قهوة أو ماءً في كوب فيه بقايا من شراب سابق منذ ساعات أو أيام، إلا بعد تمام غسيله وتنقيته. وكذلك القلب يحتاج إلى هذا التطهير الدائم، ولابد هنا لكل إنسان أن يعتقد ما يلي:

- كل ابن آدم خطّاء، وهي صيغة مبالغة تدل على أن أحداً لا يفوته أن يرتكب أخطاء تشوش على الفطرة، وتعكر صفو قلبه.

- حتى الأبـرار والمقربون لا يخلو أحـد مـن شـيء مـن اللمم، لقوله تعالـى: ﴿**الَّذينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ**﴾ (النـجـم:٣٢). وهـذا اللمم قـلّ أو كثُر يطبع على القلب النقي نكات سوداء، كالثوب الأبيض الذي تصيبه بعض الشوائب التي تغير من نصاعته ونقائه. لما رواه الترمذي بسنده عَن أبي هُرَيْرَةَ، عَن رسولِ اللّه ﷺ قالَ:

«إِنّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتّى تَعْلُو قَلْبَهُ وهُوَ الرّانُ الذّي ذَكَرَ اللّه ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كانوا يَكْسِبُونَ**﴾ (سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول اللّه، باب من سورة ويل للمطففين، ٢٠٥/٩).

أما عموم الناس فلا يفوتهم أن يجمعوا بين الصغائر والكبائر، وهذا

يلطخ القلب كما تلطخ النجاسات والقاذورات الثوب الأبيض، لتحيله إلى صورة مقززة ينفر كل ذو حس نظيف أن يلبسه.

فإذا ثبت أن هذا من المسلَّمات الشرعية والواقعية، فإن التوبة تأتي أولى الخطوات في الوسائل العملية في إصلاح قسوة القلوب. وإذا كان الحبيب محمد ﷺ معصوما من الخطأ ويتوب لله في اليوم والليلة

١٠٠ مرة فماذا عسى أمثالنا من المقصِّرين المذنبين أن يفعلوا؟! نحن بلا شك نحتاج إلى جرعات أكبر من هذه التوبة كي نغسل أدران القلوب.

ثانيا: عقبات في طريق التوبة:

١- العقبات النفسية:

أ) **تورُم الذات** وهذا يحدث إذا ابتعد الإنسان عن القرآن والسنة، فيحدث تشويش ونسيان لمعايير الخير والشر، الصلاح والطلاح، البر والفجور،

النور والظلام، وبالتالي قد يكون مرتكبا لكثير من الكبائر، ويشعر أنه ما فعل شيئًا عظيما. والحل العملي هو الالتصاق بمعايير الكتاب والسنة في تقييم نفسه.

ب) **جلد الذات في الصغائر**، ونسيان التوبة عن الموبقات والكبائر، فقد وجدت كثيرا من الشباب خاصة، وبعض الرجال عامة، يلوم نفسه بشدة إن صلى بغير سواك، أو غفل عن

صلاة السُنة أو طالت أظافره بعض الشيء، وبعض الفتيات يتحرجن إذا ظهر جزء من أصابعهن، أو إذا نزل جزء يسير من النقاب عن وجههن، ولكنهم في الوقت ذاته يعقُّون الآباء والأمهات، ويغلظون لهم القول، ويقطعون الأرحام، وقد يحملون الحقد والحسد لمن سبقهم في أي عرض من الدنيا، وقد تنطلق ألسنتهم بالسباب،

واللعنات، وأفحش الكلمات، دون أن تتحرك قلوبهم لتوبة صادقة من هذه الموبقات. والحق أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، ولعل هذا يشبه ما فعله المشركون الذين ملؤوا الجزيرة ضجيجا ضد المسلمين لما هاجمت سريةٌ عبدالله بن جحش رضي الله عنه في الأشهر الحرم عِيرَ وتجارة المشركين بقيادة عمرو بن الحضرمي، فأنزل

الله تعالى قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ (البقرة: ٢١٧). ومن هذا القبيل أيضا من يلوم نفسه وغيره إن فاته الصف الأول من الصلاة، لكنه لا يؤدي رواتب عمّاله أو خَدَمِه، أو يقضي

الدين الذي عليه في الوقت المحدد.
ومنهم من يصل أصدقاءه، أو تصل الأخت صديقاتها، ويكونون في غاية المروءة والنجدة، لكنهم يقطعون إخوانهم وأرحامهم.

ج) أن يُلح خاطر الشيطان على الإنسان أنه لن يستطيع إذا تاب أن **يصمد عن المعاصي**، وأن يصبر على الطاعة، وأن يستقيم على الصراط، فيسوِّف التوبة، وهذه

تصاحب عادة الذين أدمنوا على شيء معين، مثل: التدخين، وشرب الخمر، والمخدرات، والعادة السرية، أو الزنى، والسحاق، واللواط، والسرقة، والاختلاس، وأخذ الرشوة، أو الكذب، والغيبة، والنميمة، والإدمان على الإنترنت، والمواقع الخسيسة، والقنوات أو الفضائيات الرديئة، والأصل أن تكون التوبة كما قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ١٧).

والأصل أن يواجه هذا الشعور بتعظيم رحمة الله في القلب مهما كانت الذنوب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ

﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)، ومنه ما رواه الترمذي بسنده عن أَنَسُ بنُ مالك رضي الله عنه، قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «قالَ اللَّه تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ فيكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ

الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» (سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله، باب في فضل التوبة والاستغفار، ٤١٧/٩)، ويواجه هذه النزغة بيقين أنه إذا أخلص لله وقت التوبة أنه لن يعود، فإنه سبحانه لن يحرمه من الإجابة والإعانة، خاصة إذا صاحب توبته الدعاء: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك» (الأذكار

للنووي، ص١٠٣). وحتى لو أخلص وقت التوبة أنه لن يعود إلى ما كان عليه ثم غلبته نفسه فعاد إلى ذنوبه وتاب مرة أخرى، فلعل هذا يصدق فيه الحديث الذي رواه البيهقي بسنده أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب؟ قال: يكتب عليه. قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب قال: يكتب

عليه قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يغفر له ويتاب عليه، قال: فيعود ويذنب قال: يكتب عليه قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: يغفر له ويتاب عليه، ولا يملّ اللّه حتى تملُّوا» (شعب الايمان، السابع والأربعون من شعب الإيمان وهو باب في معالجة كل ذنب). **ولعل** هذا يشبه من يعمل وراتبه يساوي نصف مصروفاته، فإن ترك العمل تضاعفت عليه الديون، وإن ظل

يعمل فإن ديونه ستظل نصف ما يحصل عليه، وهو أفضل حالاً من العاطل المدين بكل احتياجاته، وكذا التائب والعائد إلى الذنب أفضل ألف مرة ومرة من السادر في غيِّه لا يعود ولا يتوب، وهذا يختلف عمن يظهر التوبة ويضمر العودة إلى ما كان عليه من فجوة بينه وبين ربه سبحانه وتعالى.

٢- العقبات الاجتماعية:

أ) تصعب التوبة على أي إنسان انتقل من المعصية فيما بينه وبين ربه إذا جهر وتفاخر بها بين أصحابه وخلاّنه وأصدقائه ومجتمعه، وهذه هي حالة الفسوق، والفاسق وهو الفأر الذي إذا خرج من جحره أفسد فيما حوله، كذلك الفاسق يجاهر بالمعصية، **مما قد يحول بينه وبين** التوبة إلا أن يشاء ربي شيئًا، لِما

رواه البخاري بسنده عن أبي هريرةَ رضي اللّٰه عنه يقول: سمعتُ رسولَ اللّٰه ﷺ يقول: «كلُّ أمّتي مُعَافىً إلا المجاهِرين . وإنّ من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَرهُ اللّٰه فيقول: يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد باتَ يَسترُه ربُّه ويُصبحُ يكشِفُ ستَر اللّٰه عنه»

(صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، ١٠٨/١٢)، فهذا الإنسان يزيِّن

له الشيطان أن رصيده الاجتماعي في أن يُضحك الناس بالباطل، أو يكون فُتوّة ينهزم أمامه كل أقرانه، أو أن تكون فتاة تختال بجمالها وحركاتها ورقصاتها أمام أترابها، وأن يكون مغنيا أو مغنية، أو ممثلا أو ممثلة، لهم مهارة تجلب لهم الشهرة والمال، وأن يكون حاكما له سُلطة وصار معروفا بسُلطة البطش وحِدة الغضب. أو تكون عصبة من المجرمين

يسرقون الأموال، أو يخطفون البنات، ويروِّعون الآمنين، أو ينخرطون في تجارة المخدرات والجنس، فهؤلاء يبنون حضورهم الاجتماعي كما قال الشاعر الجاهلي:

إذا أنت لم تنفع فضرّ

فإنما يراد الفتى كيما يضرُّ وينفع

أو عالم وطَّن نفسه على تسويغ أفعال السُلطة الظالمة بألوان من التلبيس، والتدليس، والتأويل، وليّ أعناق

النصوص؛ كي يُقنع العامة بصحة أفعاله الخاصة. وهؤلاء يحتاجون أن يُذكِّرهم أصحاب الإيمان، قال تعالى: ﴿**لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا**﴾ (الأنعام: ٧١)، وأن يذَكِّروهم بهذه النصوص التالية:

- قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى**

الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:

١٦٥-١٦٧)، وهي تبين أن الإنسان قد يتعلق بالأنداد والأصحاب والأصدقاء في إطاره الاجتماعي أكثر من تعلقه بحب اللّه الذي خلقه، ورزقه، والذي يناديه أن يتوب إليه، وأن يعود إليه تائبا؛ ليبدل سيئاته حسنات، فإذا لم يكن من باب الحب في اللّه فيخوّف من تبرؤ هؤلاء منهم يوم القيامة ليكونوا جميعا حطبا لجهنم – والعياذ باللّه.

- وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: ٢٧-٢٩)، سيبعث الإنسان يوم القيامة وحده، فإذا ما أراد أن يلقي اللوم والمسؤولية على أصدقائه

الذين استدرجوه إلى الشر، فإنه يشعر بالحسرة والندامة لتنصلهم منه وتبرئهم عنه، في الوقت الذي ينتظر النبي ﷺ العُصاة من أمته كي يشفع لهم، فيطلق هذه الحسرات، يعضُ على يديه نادما عن تخليه عن اتباع الرسول ﷺ، وتشبعه باسترضاء أصدقاء السوء. وتشتد نقمة هؤلاء يوم القيامة عليهم في كلمات تحمل الحقد،

والحسد، والغل عليهم تبين في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾ (الأحزاب: ٦٧-٦٨)، ويأتي الجواب: ﴿**لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف:٣٨).

ب) لعلنا هنا نحتاج أن نوصي من يريد الإقبال على الله، وصدق

التوبة إليه، أن يستحضر قوة إرادته، وجذور عقيدته، وأصول مروءته، وذكاء عقله، أن الخلق جميعا لن يغنوا عنه من اللّٰه شيئًا، وأن الموت يأتيه في أية لحظة دون إنذار: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (الأعراف:٣٤)، وأن القبر ينتظره وحده ولا يصحبه إلا عمله الصالح أو الطالح، وأن

البعث آت: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٥)، وأن الإنسان يحشر مع من أحب، فلابد من عزيمة لاتخاذ قرار حازم لمفارقة هؤلاء، مستحضراً الحكمة التي قالها ابن القيم: «إذا عاملت الحق فأخرج الخلق»، وأن أصدقاءه ومجتمعه لن يغنوا عنه من الله شيئًا. ولو استطاع أن يغدو إلى المسجد كي يتخذ منه الأصدقاء

الذين قال اللّٰه فيهم: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف: ٢٨)، فإنه سيساعد نفسه على صدق التوبة، والتزام الإنابة إلى اللّٰه تعالى. وإذا احتاج الأمر

أن ينتقل الإنسان إلى سكن آخر بين قوم صالحين كي يطهِّر قلبه، ويُرضي ربه، فهذا هو عين العقل ، وصدق الحب لله تعالى، فإذا كان الناس ينتقلون من مسكنهم فورا إذا تطايرت الأخبار أن هناك إعصارا ، أو تفجيرا، أو تلوثا بيئيا، أو لعمل آخر بأجر أعلى، فكيف نهرب من المخاطر على الجسد الذي يبلى، دون خوف على إيمان وعمل صالح

يبقى؟! إن اختيار المكان والبيئة التي فيها صحبة صالحة وعادات وأعراف أصيلة راقية أمر مهم جداً يسمو على العيش في مكان خالٍ من التلوث المادي.

ج) التوبة النصوح هي التي جمعت بين توبة الإنابة والاستجابة، وتوبة الاستجابة دافعها حب الله تعالى، والخجل منه سبحانه، الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار: ٦-٧)، يؤكده ما رواه الجلال السيوطي بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قَالَ اللَّه تَعَالَى: إني وَالْجِنّ وَالإِنْسَ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ، أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي» (جامع المسانيد والمراسيل، الجلال السيوطي، القاف مع الألف من الجامع، ٣٠٨/٥).

توبة الإنابة دافعها الخوف من الجليل، والحسرة عند الرحيل، والفزع عند النفخ في الصور، وبلوغ الحناجر يوم النشور، إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، ثم الحشر والنشر للصحائف، والدعاء بالويل والثبور، واشتداد التغيظ والزفير، ونداء جهنم على أهل المعاصي والشرور، هل من مزيد، فآنئذ يشيب الولدان من

هول هذا السعير، فإذا اجتمع الحب لله والخوف منه، فإن التوبة تكون نصوحا، يبدل بها الله السيئات إلى حسنات ويطهر بها القلب من العلل والآفات ليعود إلى صفائه ونقائه، فيعود سليما معافىً من الآفات.

المطلب الثالث: قصص من التوبة النصوح

أولا: قصص من التاريخ الإسلامي:

١- وردت قصة توبة وحشي بن حرب في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل حمزة رضي الله عنه حيث كان وحشي بن حرب عبداً ضالعاً في الشرك مغموصاً في الزنى، ودعته الرغبة في التخلص

من الرق لينال جائزة هند بنت عتبة: أن من يقتل حمزة أسد الله الذي قتل أباها وأخاها سوف تمنحه الحرية والمال. فتهيأ وتدرب لهذه المهمة ودخل معركة أحد، ولا غرض له فيها إلا نفع نفسه بقتل حمزة، والتمثيل به، وقد فعل! حتى قال ﷺ: «والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر، لنمثلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب»، مما رأى من

قتل سيد الشهداء والتمثيل به، وكل ذلك لم يمنع عناية اللّٰه أن تدرك وحشيا، ورحمة النبي ﷺ أن يقبله بين المسلمين، ودخل الإسلام وأنهى الشرك، وقاوم إغراءات صديقاته في الزنى قبل الإسلام بإحسان التوبة إلى الرحمن، وبقى مؤرقا في أن يقدم شيئًا كبيرا في الإسلام يعدل ما فعله في الجاهلية فخطط، وتدرب، ودعا اللّٰه حتى أمكنه من

قتل مسيلمة الكذاب، فكان يقول: (قتلت خير الناس بعد رسول اللّٰه ﷺ، وقد قتلت شر الناس)، فجمع بين التوبة النصوح وإلحاقها بالعمل الصالح في أعلى درجاته، وهو قتل قادة الكفر.

٢- وردت قصة توبة كعب بن مالك في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حَدِيثُ كعب بْنِ مَالك وَقَوْلُ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ**

الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وإذا كانت توبة وحشي نقلة من الكفر إلى الإيمان، ومن الزنى إلى العفة والإحصان، ومن قتل أسد الله حمزة إلى قتل مسيلمة الكذاب، فهذا نقلته كانت بعيدة، لكن قصة كعب بن مالك رضي الله عنه قصة التخلي عن واجبه لنصرة هذا الدين، وجهاد أعدائه المارقين، فلم يكن بالذي يشرب الخمر، أو يهتك العرض،

أو يسرق المال، كما نتصور أن هذه جُلُّ الذنوب والمعاصي، بل كان وزره الكبير هو التخلي عن الجهاد في سبيل الله، ومشاركة جيش العسرة، واعتُبرت هذه من الكبائر التي تقرِّب إلى النفاق، مع أنه صدَق النبي ﷺ، فلم يكذب كالمنافقين الذين تعلَّلوا بأعذار وهمية، كما يتعذر كثير من القادة والساسة وعموم الأمة الآن!، لكن كعبا، ومرارة بن

الربيع، وهلال بن أمية صدَقوا اللّٰه عز وجل، وزاد الأمر شدة أن أمر النبي ﷺ زوجاتهم باعتزالهم، والصحابة بمقاطعتهم، وزاد البلاء شدة بدعوة من ملك الغساسنة يدعوه: (أَمّا بَعْدُ فَإِنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللّٰه بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ). كما تفعل الأنظمة العالمية من أعداء الإسلام والإنسانية،

بالاصطياد في الماء العكِر، وتوظيف العملاء في الظروف الصعبة، كل هذا زادهم إلى الله تضرعا، ولم يصغوا إلى هوى النفس ونزغات الشيطان: «صدَقت رسول الله ﷺ، ومع هذا عوقبت بهذه المقاطعة من الأهل والخلان!، وها هم ملوك الأرض يدعونني أن أكون سميرهم، عزيزا عليهم»، لكن هذا الصوت تلاشى أمام قوة الإيمان، والرغبة

في الغفران، والتوبة إلى الرحمن، فصارت قصتهم عَلَماً في القرآن، وسميت السورة التي سجلت قصتهم سورة التوبة، حيث جاء الفرج من الله، غافر الذنب، وقابل التوب، ليخبرنا أن الله قد تاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ**

وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨)، وصدق اللّه إذ يقــول: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٧-٢٨).

٣- وردت قصة توبة مالك بن دينار

في كتاب التوابين لابن قدامة : حيث عُرف مالك بن دينار أول ما عرف مجرماً قاطع طريق، يتهيبه الناس، من بطشه، وظلمه، واختلاسه، وقد ظل كذلك حتى تزوَّج وأنجب بنتاً ثم ماتت، وبعد موتها رأى فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت، وأنه يُطارَد من أفعى رهيبة، تطارده وتهرول أمامه، حتى وجد وجهه تلقاء النار، والأفعى وراءه، فنظر

يميناً ليبحث عن مخرج، فوجد ابنته تقف على باب الجنة، فهرول نحوها كي تنقذه، فأشارت بيدها إلى الأفعى فتوقفت، ثم هتفت في وجه والدها بهذه الآية: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦)، فقام من نومه فزعاً، وهرول إلى المسجد عائدا إلى ربه، نادما على فِسقه، عازما على إصلاح قلبه، وإرضاء ربه، فتعلَّم حتى صار من العارفين، وتعبَّد حتى عُرف من الزاهدين، وهدى الله على

يديه خلقا كثيرا.

ثانيا: قصص معاصرة:

١- قصة توبة طالبة الجامعة:

كنت أعطي درسا بمسجد القدس بجامعة القاهرة، وطلبت من الحاضرات أن يطبِّقوا عملياً ما شرحناه من آيات توجب الدعوة إلى اللّٰه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتفقت الفتيات أن

يخرجن كل ثلاثة إلى كلية من الكليات يخاطبن شريحة محددة من الفتيات التاركات لقاعات الدراسة، والجالسات على أرصفة الجامعة مع الأصدقاء، وذوات التبرج الشديد، فإذا ما استجابت إحداهن تصحبها إحداهما إلى الدرس، وكان من بين هؤلاء التائبات فتاة جاءت

إلى المسجد ناشرة شعرها، ملطخة وجهها بالمساحيق، كاسية عارية في لبسها، وما إن استمعت إلى آيات من كتاب اللّه وشرحها، حتى انهمرت في بكاء شديد، وأعلنت توبتها إلى اللّه ورغبتها في الحجاب والعفة، وبعد هذا الموقف المهيب، جاءت تطلب طلبا خاصا أن نوظِفها في أصعب

المواقف في خدمة دين الله؛ لتكفر عن أرذل الذنوب والمعاصي التي ارتكبتها في حق الله، حيث قالت: «ذهبت لأعمل في مطعم كي أساعد أسرتي، وكان من رواد المطعم صاحب ملهى ليلي، فطلب مني أن أعمل بأجر خيالي، فلبيْتُ طلبا للمال وتوسعة على أسرتي الفقيرة، لكني وجدت أن

الثمن باهظ، والمطلوب أن ألبيَ رغبات رواد الملهى في نزواتهم وشهواتهم، وصرت ألعوبة بين الشيب والشباب، حتى دعتني هؤلاء الفتيات إلى رب الأرباب، وذكّرتني بحب الله لي وفرحه إذا تبت إليه، وخَوفّنني من لقائه، والآن أريد أن ألاحق هذا الماضي الرهيب بجبال من الحسنات، لعلها تطفئ غضب

رب الأرض والسماء، وتعوض الليالي الحمراء الفاجرة، إلى ليالٍ بالقنوت والقيام عامرة».

٢- قصة توبة طالب في رحلة العمرة: خرجت مسئولا عن رحلة العمرة، وفوجئت عند تسكين الشباب في الباخرة من السويس إلى جدة، أن هناك شابا وجهه ينضح بالفجور، وعينه حمراء

من المخدرات والخمور، وشعره أشعث مشتت يحاكي ما في صدره من الشرور. حاولت أن أسكنه في الغرف الرباعية الخاصة برحلتنا، فرفضه جميع الطلاب فزعا من شكله، وجسمه الضخم الذي ينبئ عن نفس يقودها الهوى ويملؤها الغرور، لكني نظرت إليه نظرة إشفاق وحبور،

أملا أن أكون سببا لعودته إلى رحاب ربنا الغفور، فاتخذت قرارا أن يسكن معي في غرفة الإشراف، فرفض المساعدان معي فزعا منه، فقلت: «الزعيم غارم»، ونحن مسؤولون، ويجب أن نتحمل مسؤوليته. وبدأت أحاوره على أنه رجل وأتوسمه وأمدحه فيما بقي فيه من خير، لأكسب وده، ثم طلبت منه أن يذهب إلى

قبطان الباخرة ويطلب منه أن يخصص لطلاب جامعة القاهرة مكانا للصلاة، فأتى بأحسن مكان، فكانت الخطوة التالية أن يصلي معنا في هذه الغرفة، فكان رده الطبيعي سأصلي معكم، فعلَّمته الوضوء وخرج ليصلي لأول مرة لابساً قميصاً مرسوماً عليه صورة راقصة،

فغضضت الطرف عن ذلك، لأن بعض الشر أهون من بعضه، خشية أن يترك الصلاة، وما إن ذهبنا إلى الحرم، وأدينا مناسك العمرة، وتضرعنا ببكاء أن يهب الله المسيئين منا للمحسنين، وأن يغفر لنا أجمعين، حتى جاءني هذا الشاب يطلب أن أجلس معه خاصة في الحرم، وأراد

أن يستفيض في أنـواع المعاصي والذنوب التي اقترفها، وأنه يريد أن يعود وأن يتوب، فاستوقفته أن يستر على نفسه، وأن يتضرع إلى ربه، وأن يثق في سعة رحمته، وأن يصلح ما بقي من عمره، فكان أحرص الناس على الاعتكاف، والطواف، والأذكار، والدروس، وخدمة إخوانه، وقال جئت بغرض التجارة في رحلة مخفضة، أحمل

بضاعة من مصر لأبيعها في السعودية والعكس، لكن اللّٰه أراد بي خيرا، وأن تكون تجارة لن تبور، وعاهد اللّٰه أن يرجع بغير ما ذهب، وأشهد أنه عاد بغير الوجه الذي ذهب به، وطمأنته أنه لا مانع من أن تبيع ما جئت به، فاللّٰه يريد سعادتنا في الدارين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وَفِي الآخرَة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)، وذكّرته بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا منْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ منْ عَرَفَات فَاذْكُرُوا اللَّهَ عنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَام وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ منْ قَبْله لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾

(البقرة: ١٩٨)، أي في مناسك الحج والعمرة. وحمدت اللّٰه أن جعلني سببا أن أصِل الناس الذين أحبهم بربي الذي أحبه.

هذه أمثلة تؤكد بقوة أن الذنُوب والمعاصي مهما عظمت لا تمنع الإنسان من لحظة صدق، ليصل إلى توبة نصوح، فيفرح به ربه ويباهي به ملائكته، للحديث

الـذي رواه مسلم بسـنـده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: «للهُ أَشَـدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِه ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحلَته بِأَرْض فَـلاَة. فَانْفَلَتَتْ مِـنْـهُ. وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَـرَابُـهُ. فَأَيِـسَ مِنْهَا. فَأَتَى شَجَرَةً. فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا. قَـدْ أَيِسَ مِـنْ رَاحِلَتِهِ. فَبَيْنَا هُوَ

كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ. فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا. ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» (صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٥٦/١٧)، فمن منا إخواني وأخواتي لا يريد أن يُفرح ربه، وأن يُضحك ربه سبحانه في عليائه؟! إنها التوبة النصوح الدائمة في كل

يوم وليلة، ليكون ثمة تطهير لهذا القلب، تلكم اللطيفة الربانية ذات المسحة الروحية التي تحتاج منا إلى عناية ذكية.

من نافلة القول أن نذكر هنا بأن من شروط التوبة إلى اللّٰه: الإقلاع التام عن المعصية، والندم الشديد عليها، والعزم الأكيد على ألا يعود إليها أبدا،

فإن كان الذنب متعلقاً بحقوق العباد، فيزاد شرط آخر وهو أن يرد الحقوق إلى أهلها، أو يستعفيهم منها، فإن كان صاحب الحق من قوم لا يستطيع الوصول إليهم، كمن سرق من قوم غرباء لا يعرفهم، أو ظلم قوماً فرُّوا بدينهم ولا يدري أين أماكنهم، فيتصدق باسمهم، ويدعو اللّٰه أن يتحمل عنه هذه المظالم.

المطلب الرابع: الإصلاح شرط من شروط صحة التوبة

إذا كانت التوبة هي التخلية، فإن الإصلاح هو التحلية، ولا يمكن تطهير القلب بصرفه عن المحرمات والمكروهات فقط، بل يجب شغله بالواجبات، والمكرمات، والحركة الدائبة في

الإصلاح والتغيير، وإلا فإن القلب الفارغ من العمل للّه سرعان ما يجذبه الشيطان ويصرفه الهوى عن طريق اللّه، فيعود أسوأ مما كان، ويوصله إلى حالة يأس، وأنه لا يستطيع بحال أن يصلح من نفسه، وأن يصدق في توبته، والحل العملي أن يملأ الإنسان كل حياته بأعمال البر والخير، سواء

لنفسه أو مجتمعه، ومما يدل بلفظ صريح على أن من شروط قبول التوبة التحرك بالإصلاح للنفس والمجتمع، ما يلي:

١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ *

إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٥٩-١٦٠)، فالآية هنا تشترط البيان في التوبة عن كتمان الحق، وتأخيره عن وقت الحاجة، فلو كتم الإنسان علما - قل أو كثر- تأخير في بيان الحق عن وقت الحاجة كما يفعل بعض شيوخنا

وعلمائنا عندما يُسوِّغون السلام مع الصهاينة، ويصمتون عن نصرة أهل فلسطين، أو يصمتون عن احتلال العراق، وسلب الخيرات، وهتك الأعراض، أو يصمتون عن نشر الصور العارية، والأفلام الهابطة في الإنترنت والفضائيات، أو يصمتون عن الربا الذي ينتشر

كالنار في الهشيم في الشركات والمؤسسات، ويصمتون عن الملاحقة الجائرة للدعاة ونشر الإشاعات، والتضييق على المحجبات، وترك المفسدين في الأرض، فإن من يسكت عن ذلك يأثم عند الله إثماً عظيماً.

٢- لو أن الإنسان غلبته شهوته فخاض في الأعراض قذفا أو

زنى، فلا يقبل اللّٰه توبته إلا أن يبادر إلى الإصلاح، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا * إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكيمًا * وَلَيْسَت التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

(النساء ١٦-١٨)، وكذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَات ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَة شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً

وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٤-٥). فالآيات تدعو من ظلم نفسه في شهوات الخوض في أعراض الناس، أو التفريط في عرضه، أن يعود من قريب، لا ينتظر إلى سكرات

الموت، وأن تكون العودة مشفوعة بالإصلاح والتغيير؛ لإصلاح نفسه ومجتمعه.

٣- قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (الأنعام: ٥٤)، هذه الآيات

تخاطب المؤمنين إذا زلت بهم القدم بعد ثبوتها فخاضت في السوء بجهالة، لكن رحمة اللّٰه تدركهم، وتفتح لهم طريق التوبة، بشرط أن يكون مصلحا، وليس فقط صالحا، لأن الهمزة في كلمة أصلح هي همزة التعدية، فيقال صلح أي في نفسه وأصلح أي في غيره.

أما عن الأساليب العملية لعلاج قسوة القلوب بعد هذه التخلية بالتوبة الصادقة، والتزام منهج الإصلاح، وملء الفراغ في الوقت، والجهد، والسلطة، والمال، من الشر إلى الخير، كما سنتناوله بإذن الله في قسم التحلية في الجزء الثاني من هذه الدراسة، حول الوسائل العملية لعلاج قسوة القلوب،

وأهمها المشارطة، والمجاهدة، والمحاسبة، والمعاقبة للنفس.

الخلاصة

١- يجب الانتقال من الاهتمام بعلاج قسوة القلب في جانبه المعنوي ليكون على الأقل موازيا لفزع الناس واهتمامهم بعلاج أمراض القلب العضوي، وصولا إلى أن يكون الاهتمام بالقلب المعنوي الذي يبقى أولى وأهم من القلب العضوي الذي يبلى.

٢- القلب هو وعاء الإيمان أو الكفر، الإخلاص أو الرياء، الذكر أو الغفلة، السعادة أو الشقاء، التقوى أو الطغيان، الرحمة أو القسوة، العلم أو الجهل، الشجاعة أو الجبن، الحب أو البغض، التواضع أو الكبر، الأمان أو الهلع.

٣- لا تصح تحلية بغير تخلية، وأولى خطوات التخلية في إصلاح

القلب هي التوبة النصوح.

٤- هناك عقبات نفسية داخلية في طريق التوبة مثل تورم أو جلد الذات أو اليأس من الصمود أمام المعاصي، وعلاجها الأول مجاهدة النفس.

٥- هناك عقبات اجتماعية في طريق التوبة لمن جهر واشتهر بالمعصية، وهذا يحتاج إلى

مقاومة هذا العرف حوله وانتقاء الأصدقاء الصالحين ليعينوه على التوبة الصادقة.

٦- التوبة النصوح هي التي تجمع بين توبة الاستجابة حياء من اللّٰه وتوبة الإنابة خوفا من مقامه سبحانه.

٧- من الأهمية مراجعة قصص التائبين سواء في تاريخنا

الإسلامي مثل توبة وحشي وكعب ومالك بن دينار، وقصص التائبين من واقعنا المعاصر؛ لتعين الإنسان على نفسه في أن يسلك سبيلهم إلى التوبة النصوح.

٨- من استقراء آيات القرآن يتبين بجلاء أن قبول التوبة مشروط بحركة دائبة نحو الإصلاح والتغيير.

المحتوى